الفصل الأول

نظرية الحرب والسلام

في شريعة الإسلام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ .

الفصل الأول

نظرية الحرب والسلام

في شريعة الإسلام

ظاهرة الحروب

يري العديد من المفكرين أن الحرب ظاهرة اجتماعية قديمة صاحبت الإنسان منذ نشأته على الأرض، وكانت الرغبة في الحرب عند بعض الشعوب البدائية، هي الغالبة على الرغبة في السلم، لأن هذه الشعوب تعيش في خوف من انقضاض عدوها عليها فتظل متربصة متحفزة حتى لا يأخذها على غرة.

ومع فجر الحضارة أُصيبت الإنسانية بمرض الحرب، ومع الحرب تدفق نَهم الإنسان لامتلاك القوة، ومع تكريس العنف والعنف المضاد انتشرت الحروب في العالم، ولم يستخدم الإنسان حكمته، وفطرته النقية، وعقله البشري السليم إلا نادراً !.

وتعد الحروب أكثر الظواهر البشرية تأثيراً على القيم الإنسانية، لأنها سبب في إهدار حياة الأفراد والمجتمعات، فيصبح الإنسان لا قيمة له، وهو ما يتطلب حاجة البشر للتغلب على هذه الظاهرة وضبط أَحكامها بصورة تراعي القيم الإنسانية الخالدة.

لقد مرت الإنسانية بتضاريس وعقبات وأدوار من التعامل تكاد تكون خلافاً لما أنزله الخالق عز وجل في كافة الأديان السماوية؛ لما فيها من الظلم والاستبداد والسيطرة، والاستعمار؛ لضمان المصالح الخاصة على حساب المصلحة العامة، فاستبد الحكام والملوك وأصحاب الإمبراطوريات بطغيانهم ولم يحكموا بما أنزل الله وتعدّوا حدوده، فأشاعوا الحروب والنزاعات والقتل والسلب والإيذاء.

فأصبحت الحروب تَجلب للمجتمعات الآلام، والمآسي، والويلات، وتلحق بهم مدناً وصوامع، وتزيل كل مظاهر الرقي والعمران والحضارة، حتى إذا تقدم المجتمع خطوة عاد إلى الخلف خطوات.

فما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها دميمة ... وتضر اذا ضربتموها فتضرم[1]

(١) الأبيات للشاعر: زهير بن أبي سلمى، أنظر ديوانه، تحقيق: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، ٢٠٠٠ م / ١٤٢١ هـ.

فكانت سنوات الحرب في تاريخ البشرية أكثر من سنوات السلام، فعلى مدى خمسة آلاف سنة حدثت (١٤٥٥٥) حربا تسببت في موت (٢٥) مليار إنسان تقريبا، وعلى مدى ال(٣٤٠٠) سنة الأخيرة من حياة البشرية لم تنعم البشرية إلا بمائتين وخمسين سنة سلام فقط[١].

وفى إحصاء أخر فإن البشرية شهدت (٢١٣) سنة حرب مقابل سنة واحدة سلام، وأنه خلال (١٨٥) جيلا، لم ينعم بسلم مؤقت، إلا عشرة أجيال فقط. فمنذ الحرب العالمية في القرن العشرين، شهد العالم ما يقرب من مائتين وخمسين نزاعا مسلحا دوليا وداخليا بلغ عدد ضحاياها (١٧٠) مليون شخص، أي يحدث كل خمس شهور تقريبا نزاعا مسلحا، ينتج عنه خسائر في الأرواح والممتلكات والمعدات[٢].

ويذكر ابن خلدون[٣] في مقدمته "أن الحرب واقعة في الخليقة منذ خلقها الله فمنها ما هي عصبية وإما غيرة ومنافسة، وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للمُلْك وسعي في تمهيده.[٤]

ويرى العديد من المفكرين في العصر الحديث أن منطق الصراع والحرب[٥] كان عبر كل الأزمنة هو المنطق السائد في الفكر العالمي، وأن الحرب ظاهرة إنسانية قديمة قدم المجتمع الإنساني نفسه [٦] فنجد فولتير (Voltaire)[١] يرى: "أن السلام مفهوم طوباوي"[٢].

---

(١) أنظر: السيد مصطفي أبوالخير: نظرية الحرب بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي المعاصر، بحث مقدم للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، ٢٠٠٦م / ١٤٢٧ هـ.

(٢) سعيد جويلى: المدخل لدراسة القانون الدولي الانسانى، القاهرة، ٢٠٠٣ /١٤٢٤ هـ، ص ١.

(٣) ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٥) عبقرية اسلامية متميزة، فقد كان عالمًا موسوعيًا متعدد المعارف والعلوم، وهو رائد مجدد في كثير من العلوم والفنون، فهو المؤسس الأول لعلم الاجتماع، وإمام ومجدد في علم التاريخ، وأحد رواد فن "الأنوبيوجرافيا" - فن الترجمة الذاتية - كما أنه أحد العلماء الراسخين في علم الحديث، وأحد فقهاء المالكية المعدودين، ومجدد في مجال الدراسات التربوية، وعلم النفس التربوي والتعليمي، كما كان له إسهامات متميزة في التجديد في أسلوب الكتابة العربية [شذرات الذهب ٧٦/٧، والضوء اللامع ١٤٥/٢، والأعلام ١٠٦/٤، ومعجم المؤلفين ٥/ ١٨٨].

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط ٢، ص ٨٢٣.

(٥) الحرب War فى علم السياسة تعنى: إعتداء منظم يقصد منه إجبار دولة أو جماعة على الخضوع لإرادة دولة أخرى (راجع الموسوعة السياسية، ترجمة، تحقيق: الكيالي-زهيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر).

(٦) أنظر: سيد الناصري: الحرب والمجتمع القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠ م / ١٤٢١ هـ، ص ٦.

وجاء المفكرون والعلماء الأوروبيون في أواخر القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين، فبلوروا فكرة الصراع conflict، وأقاموا نظرياتهم سواء في مجال العلوم البحتة، أو في حقل العلوم الإنسانية.

وقد سعى الفلاسفة والمفكرين عبر السنين لتفسير عدوانية الآدميين اعتمادا على تفسير طبيعة البشرية، فوصف الفيلسوف الإنجليزي في القرن السابع عشر توماس هوبز(١٥٨٨م-١٦٧٩م) [٣] في كتابه (لاوثيان) الأحوال المعيشية في حالة الطبيعة (كحرب يشنها كل آدمي ضد الآدمي الآخر) وأن البشر مشغولون بأنفسهم وأنانيون وطامعون ولا يهتمون بغير إشباع شهواتهم.

وقد لاحظ أوغسطين [٤] أيضا القدرة الفائقة للإنسان علي إلحاق الأذى بالآخرين والاعتداء عليهم، وأرجعه للخطيئة الأزلية إذ ترتبط بالطبيعة العدوانية للإنسان.

---

(١) فرانسوا- ماري أرويه (١٦٩٤-١٧٧٨) عرف باسمه المستعار فولتير فليسوف وصحفي فرنسي. أكد في مجمل فلسفته أنه لايمكن لنا كأفراد، أن تكون لنا حريات فردية أساسية كحرية التعبير، اذا لم نتمكن من التدليل والتوثيق على معتقداتنا الشخصية. له مسرحية تدعي التعصب عام ١٧٤٢يتهم فيها الإسلام بخطف النساء لحملهن علي الايمان و يشكك فيها عن حديث الرسول ﷺ إلي جبريل عليه السلام و قد صودرت بعد عام بسبب تحفظ الكنيسة عليها و اخر اصدار في القرن ١٩ [راجع: الموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م، والموسوعة الفلسفية المختصرة، نجم الدين بن حجي، برهان الدين بن خطيب عذراء، دار القلم، ٢٠٠٣ م / ١٤٢٤ هـ].

(٢) الطوباوية من اليونانية u-topos، أي "ليس في أيِّ مكان" – وهو التعبير الذي استخدمه بالمعنى نفسه توماس مور (في كتابه يوطوبيا: أو حول الدستور الأمثل للجمهورية، ١٥١٦) ليصف مدينة مثالية وخيالية في نفس الوقت [راجع: الموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م / ١٣٩٢ هـ ، والموسوعة الفلسفية المختصرة، نجم الدين بن حجي، برهان الدين بن خطيب عذراء، دار القلم، ٢٠٠٣ م/ ١٤٢٤ هـ].

(٣) ولد توماس هوبز في إنجلترا عام ١٥٨٨ ودخل أكسفورد و هو في الخامسة عشرة، واتضحت معالم فلسفة هوبز عام ١٦٤٠ خلال نشره كتاب (مبادئ القانون الطبيعي السياسي)، بعدها بعشر سنوات نشر هوبز كتاب (لاوثيان) أو المجتمع الكنيسي و قد دافع في كتابه المشار اليه (لاوثيان) عن الحكم المطلق وكان يؤيد بذلك حكم آل ستيوارت في إنجلترا [راجع: الموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م / ١٣٩٢ هـ، والموسوعة الفلسفية المختصرة، نجم الدين بن حجي، برهان الدين بن خطيب عذراء، دار القلم، ٢٠٠٣ م/ ١٤٢٤ هـ].

(٤) القديس أوغسطين عالم لاهوت في الكنيسة اللاتينية. وقد ولد في تاغست (سوق أهراس في الجزائر حالياً) سنة ٣٥٤م وتوفي في هيبون (إيطاليا) سنة ٤٣٠م. تبع هواه في مرحلة شبابه الصاخب في قرطاج، واعتنق المانوية: ثم ارتدّ، وتحوّل إلى اللاهوت فصار أسقفاً سنة ٣٩٦م وترك تأثيراً واسعاً في علم اللاهوت الغربي و ترك مؤلفات منها: "في النعمة" و"مدينة الله" و"الاعترافات" [راجع: الموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م / ١٣٩٢ هـ،

وجاء الفيلسوف الهولندي اسبينيوزا[١] في القرن السابع عشر بقول تضمن القول بوجود صراع هائل داخل الإنسان بين قوي الهوى، والقوي العاقلة ومن سوء الطالع أن الهوى غالباً ما ينتصر علي العقل.

ولاحظ علماء النفس أن القتال والحرب يشبعان احتياجات ممتدة الجذور عند الأفراد، والمجتمعات، وأنها احتياجات من المفروض أنها فطرية عند البشر وليس بالإمكان قمع هذا الدافع العدواني، ولكن بالاستطاعة ترويضه، وإعادة توجيهه، وتحويله صوب أنشطة أكثر اتساما بالمسالمة.

واعتقد سيجموند فرويد[٢] أيضا بذبوع السلوك العدواني للبشر من دوافع لا شعورية بعيدة الغور في النفس، ويرى أنه من الواجب ليس فقط انطلاق العدوان علي نحو أو آخر ولكن يتعين أن يجني الإنسان قدر من الإشباع من هذا الانطلاق وبعبارة أخري يحتاج الإنسان إلي إشباع هذه الدوافع العدوانية!.

واعتبر مونتجمري الحرب من العناصر الرئيسية للتاريخ ومرتبطة بضروريات الحياة، كالطعام والشراب [٣].

والمدرسة الواقعية[٤] تذهب مذهباً مؤيداً لذلك حين تستنتج أن الصراع الدولي هو القاعدة التاريخية التي تحكم العلاقات الدولية، أما الاستقرار أو السلام فهو الظاهرة العرضية في التاريخ الإنساني.

والموسوعة الفلسفية المختصرة، نجم الدين بن حجي، برهان الدين بن خطيب عذراء، دار القلم، ٢٠٠٣ م/ ١٤٢٤ هـ].

(١) باروخ سبينوزا فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن ١٧. ولد في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ في أمستردام، و توفي في ٢١ فبراير ١٦٧٧ [راجع: الموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م، والموسوعة الفلسفية المختصرة، نجم الدين بن حجي، برهان الدين بن خطيب عذراء، دار القلم، ٢٠٠٣ م].

(٢) سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٥) عالم نمساوى شهير مؤسس علم التحليل النفسى PSYCHOANALYSIS حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة فينا ١٨٨١ واضطره الحكم النازى الهتلرى على ترك النمسا ١٩٣٨ فعاش فى لندن وتوفى بها ١٩٣٩ [راجع: الموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م، والموسوعة الفلسفية المختصرة، نجم الدين بن حجي، برهان الدين بن خطيب عذراء، دار القلم، ٢٠٠٣ م].

(٣) مونتجمري: الحرب عبر التاريخ، تعريب وتعليق، فتحي النمر، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١م / ١٣٩١ هـ ص ٤٠.

(٤) جاءت المدرسة الواقعية ردا على المدرسة الرومانسية، فقد أعتقد أصحاب هذه المدرسة بضرورة معالجة الواقع برسم أشكال الواقع كما هي، فالمدرسة الواقعية ركزت على الاتجاه الموضوعي، وجعلت المنطق الموضوعي أكثر أهمية من الذات، ومن أبرز أعلامها وليم جيمس [راجع: قصة الفلسفة من أفلاطون وحتى جون ديوي، ول ديورانت، والموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م، والموسوعة الفلسفية المختصرة، نجم الدين بن حجي، برهان الدين بن خطيب عذراء، دار القلم، ٢٠٠٣ م].

وهكذا وجدنا أن الكثير من مفكري الشرق والغرب، يرون أن الصراع ظاهرة طبيعية في حياة الإنسان وفي حياة المؤسسات جميعاً فبدءاً من الأسرة وإلى مستوى الإنسانية، مروراً بالقبيلة والدولة والأمة؛ فإن قانون الصراع هو ما يحكم المؤسسات جميعا [١].

ولكن كان للإسلام كلمة أخرى هي العليا.

بزوغ فجر الإسلام والسلام

كانت الحروب قبل بزوغ فجر الإسلام حروب شعوب، لا حروب مقاتلين فقط، فكان الشعب المحارب يستبيح من الشعب الآخر كل الحرمات، في الميدان وفي خارج الميدان، في أثناء المعركة، وبعدها وقبلها، ما دامت العداوة مستحكمة، تكون العداوة ثابتة؛ فكان الأصل في العلاقة هو الحرب وليس السلم.

والحرب مع الشعب كله لا مع حكامه وقواده والمقاتلين فيه، حتى إن الرجل إذا أخطأت قدماه فنزل في أرض غير أرض بلاده، ولم يكن بين بلاده وبينها عهد استُرق وبِيع في الأسواق على أنه عبد في شريعة ذلك الزمان [٢].

وكانت أحوال العالم تسير من سئ إلى أسوأ يعبر عنها قوله تعالى:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [٣]

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر للباحث، الطريق إلى صدام الحضارات، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٦م /١٤٢٧ هـ.

(٢) محمد أبو زهرة: نظرية الحرب في الإسلام، ط١، دار الفكر العربي، ٢٠٠٤ / ١٤٢٥ هـ، ص ٩.

(٣) سورة الروم: آية ٤١.

أحوال العالم

كانت الحرب في ذلك العهد جزءا أصيلاً من الحياة عند الفرس والروم وكانت الشعوب مشبعة بالعقلية الحربية، وقد ابتلعت روما الإمبراطورية الإغريقية كاملة وتمددت بعدها لتشمل كل أوروبا جنوب الدانوب وغرب الراين؛ ثم قفزت المانش لتضم انجلترا [١] وجعلت من البحر المتوسط بحيرة رومانية وبحراً مغلقاً أشبه بنواة للإمبراطورية والعجيب أن معنى كلمة روما Hroma يعكس مدى تسلطها وتجبرها حيث تعنى "الجبارة !!".

وكان العداء إذا اشتعلت ناره، دام عدة أجيال[٢]؛ حتى لقد طُبع الصراعُ والحرب عند الفرس والروم في مظاهره التشريعية والقانونية والسياسية والمدنية، بحيث غلبت فكرة الصراع عليها وهيمنت عليه هيمنة مطلقة باعتباره أصلاً ثابتاً للحياة الدنيوية والأخروية.

ويعبر عن ذلك قول أحمد شوقي:

والأرض مملوءة جورا مسخرة ... لكل طاغية في الخَلْق محتكم

مُسَيْطِر الفرْس يبغي في رعيتهِ ... وقيصرُ الروم من كِبر أصم عمي

يُعذبان عباد الله في شُبه ... ويذبحان كما ضحيت بالغنم

والخَلْقُ يفتك أقواهم بأضعفهم ... كالليث بالبَهْمَ أو كالحوت بالبَلَم[٣]

---

(١) لمزيد من التفاصيل، أنظر: جمال حمدان: استرتيجية الاستعمار والتحرير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩م /١٤٢٠ هـ، ص ٢١.

(٢) مولاي محمد علي: محمد رسول الله، ترجمة، مصطفي فهمي وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٨ م / ١٣٩٩ هـ، ص ١٨.

(٣) أنظر أحمد شوقي: ديون الشوقيات، ج١ ، دار زاهد القدسي ،١٩٩٤ ص ، ١٥٥، والبلم صغار السمك.

وكانت حالة العرب قبل الإسلام مزيج من العداوة والبغضاء والتناحر والحروب تندلع لأهون الأسباب[١] وهو ما عُرف " **بأيام العرب**"[٢] وكانت تقوم على الشهوات والأهواء والمطامع يحدوها حب المغنم والسلب والنهب... ثم هي تقوم في حركتها على التخريب والتدمير ونقض العهود والمواثيق[٣].

وكان التظالم فاشياً في المجتمع[٤]، تعبر عنه حكمة الشاعر " زهير بن أبي سلمى "[٥].

---

(١) مثال على ذلك حرب البسوس بين بكر وتغلب، وقد دامت أربعين سنة وكان يضرب بشؤمها المثل، وحرب داحس والغبراء الذي سمي على اسم حصانين وهي كانت بين عبس وذبيان بسبب التراهن على الخيل، واستمرت اربعين سنة، حرب الفجار بين قريش وكنانة، بسبب أنه وقع في الأشهر الحرم.

(٢) أنظر، الميداني: مجمع الأمثال، الباب التاسع والعشرين، ج٢، ص ٢٦٠، ابن قتيبة: المعارف ص ٢٩٤ – ٢٩٥، ابن الأثير ج١، ص ٣٤٣ وما بعدها، ابن هشام: السيرة،ج١، ص ١١٧ -١١٩، أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٢٠ / ١٣٢، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٣٩٠، جواد علي المفصل ج٥، ص ٣٣٣.

(٣) أنور الجندي: تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٩/ ١٤١٠ هـ، ص ١٠٠.

(٤) أنظر، سيد قطب: معالم، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٥) هو زهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رياح بن قرّة بن الحارث بن إلياس بن نصر بن نزار، المزني، من مضر. حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة. كان له من الشعر ما لم يكن لغيره، ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة، وكان يقيم في الحاجر من ديار نجد، واستمر بنوه فيه بعد الإسلام. قيل كان ينظم القصيدة في شهر ويهذبها في سنة، فكانت قصائده تسمى الحوليات. إنه، كما قال التبريزي، أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء، وإنما اختلف في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه، والآخران هما امرؤ القيس والنّابغة الذبياني. وقال الذين فضّلوا زهيراً: زهير أشعر أهل الجاهلية، روى هذا الحديث عكرمة عن أبيه جرير. وإلى مثل هذا الرأي ذهب العبّاس بن الأحنف حين قال، وقد سئل عن أشعر الشعراء. وقد علّل العبّاس ما عناه بقوله: ألقى زهير عن المادحين فضول الكلام كمثل قوله :فما يَكُ من خيرٍ أتوه فإنّما- توارثه آباء آبائهم قبْل.

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يَظلم الناس يُظلم[1]

وكانت الصداقة والعداوة في نظر العربي الجاهلي دينا يجد في أدائه عن رغبة، وكان يتباهى برد الشر بالشر:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفع[2]

هذا ما كان عليه الناس في الجاهلية من تنازع وتناهب، ومضارعة الحيوان في سيرته، ولا تؤدي إلى ما خلق له الإنسان من نيل الدرجات العلى علماً وأدباً ونظاماً، وتوفراً على الخير.

وكانت القبائل تتصارع فيما بينها دفاعاً وهجوماً؛ دفاعاً من أجل البقاء، وهجوماً من أجل الحصول على الأسلاب، بشراً كانوا أم ثروات[3].

وكن إذا أغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا[4]

نزلن من الرباب على حلول وضبة أنه من حان حانا[5]

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

ولكثرة سيل الدماء جعل العرب أربعة أشهر حُرماً[6] لا قتال فيها، وبالرغم من ذلك كانوا يؤخرون شهر المحرم إلى صفر لحاجتهم إلى شن الغارات وطلب الثارات، ويؤخرون الحج عن وقته تحرياً للسنة الشمسية وهو ما يسمونه بالنسئ[7].

تاه الدليل فلا تعجب إذا تاهوا أو ضيع الركب أشباحٌ وأشباه

---

(١) معاذ السرطاوي ومروح الرفاعي: مختارات من الشعر العربي القديم، دار الفكر، ط١، ص ٢٨.

(٢) الأبيات لعبد الله بن عبد العلى.

(٣) أحمد فؤاد بلبع: مؤسسة الرق، ج١، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣ م / ١٤٢٤ هـ، ص ١٦٦.

(٤) كن: أي كانت الخيل والمراد أربابها المغيرون، أعوزهن نهب: تعسر عليهن ما ينتهب، جواب(إذا) أغرن في البيت التالي.

(٥) الضباب جمع ضب، والحلول الذين يحلون في مكان واحد يقول: إنهم لاعتيادهم الغارة لا يصبرون عنها ويتقدمون للأقارب إذا تعسر الأباعد ومن هلك بغزونا هلك هلاك محققا.

(٦) الأشهر الحُرم هي " ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ".

(٧) أنظر: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، ج١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٤ م / ١٣٥٣ هـ، ص ١٢٧.

تـاه الـدليل فـلا تعجـب إذا تركـوا قصـد السـبيل وحـادوا عـن سـجاياه

واشتدت حاجة الإنسانية إلى وثبة الفجر يطوي ظلامها والى يقظة ضمير يحفظ إنسانيتها، والى حق يصون كرامتها؛ فالأرض ما ضاقت بأهلها ولن تضيق، والسماء ما ضنت برحمتها ولن تضن، وكان لا بد للعالم من نظام جديد؛ ودين جديد يخرجه من الظلمات إلى النور، فكان الدين وكان الرسول وكانت الرسالة فكان **الإسلام**.

والدين أساس الحضارة[١]، والتاريخ يثبت أن المعرفة الإنسانية عبر العصور التاريخية، تقدمت وتطورت ونضجت، بتأثير الدين؛ فالدين خير مرشد للإنسان إلى طريق الحضارة، والنهضة والتطور[٢].

وكانت رسالة الإسلام رسالة أخلاق فاضلة يريد نشرها بين الناس، فلا يمكنها إلا أن تقف عند حد المروءة، والإنصاف فيما يكون بين المنتصر والمهزوم، فتزن كلا من النصر والهزيمة، وتنظر إلى ما يترتب عليهما من المصلحة أو المفسدة؛ فإذا كان النصر يؤدي إلى مفسدة لم تقف بجانب المنتصر، وإن كانت نصره يثير الإعجاب في النفوس، ويدل على ما يمتاز به المنتصر من القوة والحزم، بل تقف في جانب المهزوم تؤازره وتواسيه، وتتمنى له النصر على عدوه، وتبث في نفسه الأمل والرجاء، حتى لا يستسلم ولا يستيئس، ولا تقطع الأمل في النصر بعد الهزيمة[٣].

وقدم الدين الإسلامي للمجتمع البشرى أُسُسَاً للحياة، تحكمها الضوابط الخُلُقية التي تَكْفُل السلامة لهذا المجتمع، وأمده بنظم روحية واجتماعية وأخلاقية متينة[٤] تهدف إلى تحرير العالم مما ساده من فساد أخلاقي وانحلال اجتماعي وتأخر حضاري.

---

(١) علي حسني الخربوطلي: الحضارة الإسلامية، دار المعارف، (سلسلة كتابك)، عدد ٢٧ ، ١٩٧٧ / ١٣٩٨ هـ ص ٥.

(٢) من تعريفات الحضارة أنها: العادات والمعلومات والمهارات والحياة العامة والخاصة فى السلم والحرب والدين والعلم والفن وتتمثل فى نقل تجارب الماضى للجيل التالي.

(٣) عبد المتعال الصعيدي: الشرق والغرب قبل الإسلام وبعده، مجلة رسالة الاسلام، عدد ٣٢.

(٤) محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، الهيئة المصرية للكتاب (مكتبة الأسرة) القاهرة، ١٩٩٧/ ١٤١٨ هـ، ص ١٥.

وقد جمع الإسلام بين جوهر الرسالات السماوية كلها، ثم وضع منهجا للناس إلى أن تقوم الساعة يتعاملون به فيما بينهم[١] فكان الروح الحقيقية للإنسان والنور الهادي له في درب الحياة والشفاء الكافي الوافي لأمراض البشرية والصراط المستقيم الذي لا يضل من سلكه وسار فيه[٢].

ولم يكن الدين الإسلامي منعزلاً عن الحياة، بل كان دائماً هو دستور تلك الحياة؛ فلإسلام دين ونظام مجتمع[٣] يريد أن ترفرف على البشرية ألوية الأمن والطمأنينة[٤].

ولما كانت الحرب ظاهرة اجتماعية، فقد عالجها الإسلام[٥]؛ فقد جاء ليخرج الناس من ظلمات الكراهية إلى نور المحبة، وليخرجهم من مرحلة النزاع الدائم إلى الرحمة والعدل والسلام؛ فضبط الحروب ووضع لها القواعد وجعلها لصالح الإنسان قائمة على أسس من العدالة، وجعل الدافع لها حماية الحق[٦] ودفع الظلم وبنى قواعدها على أسس ثابتة وأصول محكمة.

وأول ما يلاحظ[٧] في كلمة الإسلام هو الاشتقاق من مادة " السلام" و الإسلام والسلام من مادة واحدة، وليس الإسلام إلا خضوع القلب والروح والجسم لنظام الحق والخير، واستسلام المسلم لمالك الأمر في الدنيا والآخرة.. لله رب العالمين، والقرآن الكريم يصف المؤمنين عباد الرحمن بالمسالمة في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾[٨].

---

(١) حسين عباس الأنصاري: الإسلام والحياة، مقال بمجلة الأزهر، عدد مارس، ٢٠٠٣ م / ١٤٢٤ هـ ص ١٢٥.

(٢) عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، ط٣، دار البيان، ١٩٧٦ / ١٣٩٧ هـ، ص ١٢.

(٣) أنور الجندي: الدعوة الإسلامية في عصر الصحوة، دار الفضيلة، القاهرة، ١٤١٧/١٩٩٦ هـ، ص ٦.

(٤) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، ط٢٣، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٥ م /١٤٢٦ هـ، ص ٢٤.

(٥) محمد جمال الدين محفوظ: العسكرية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة ١٤١٥/١٩٩٤ هـ، ص ٥.

(٦) الحقّ في اللّغة خلاف الباطل، وهو مصدر حقّ الشّيء يحقّ إذا ثبت ووجب، وعرّفه الجرجانيّ بأنّه الثّابت الّذي لا يسوغ إنكاره، والحقّ اسم من أسماء الله تعالى، وقيل من صفاته.

(٧) أنظر: مصطفى السباعي: نظام السلم، مرجع سابق.

(٨) سورة الفرقان: آية ٦٣.

وأفضل ما يلقى الله به عباده تحية السلام يقول تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [1] والجنة نفسها اسمها دار السلام [2].

واهتم المسلمون بتفسير كلمة (إسلام)، فقال بعضهم إنه الخضوع والاستسلام والانقياد لله رب العالمين، ويشترط فيه أن يكون اختيارياً لا قسرياً [3]، وقال بعض إن معناه (المسالمة) [4].

والسلام شعار هذه الأمة، والإسلام سلام، ونور وصراط مستقيم وهو سلام يأسو جراح الإنسانية، ويسعفها في صراع الغرائز وقتال الشهوات [5].

والقرآن يفرض على امتداد آياته، السلم أو السلام [6] فمن تَتَبُع [7] آيات القرآن وجد أن لفظ " السلم" وما اشتق منه ورد فيما يزيد على ١٣٣ آية، بينما لم يرد لفظ " الحرب" في القرآن كله إلا في ست آيات فقط، وبالتالي يتضح أن فكرة " السلام" تحتل المقام الرئيسي بين أهداف الإسلام العامة، بل يصرح القرآن بأن الثمرة المرجوة من إتباع الإسلام هي الاهتداء إلى طرق السلام والنور.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾ [8].

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٤٤.
(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر، الامام الشهيد حسن البنا، السلام في الإسلام، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٥ / ١٤٠٦ هـ، ص ٢٧.
(٣) أنظر: عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، مرجع سابق، ص٨.
(٤) علي حسني الخربوطلي: الحضارة، مرجع سابق، ص ٥.
(٥) أمين الخولي: الجندية والسلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢ / ١٤١٣ هـ، ص ١٥٤.
(٦) مراد هوفمان: الإسلام كبديل، ترجمة، غريب محمد غريب، ط١، مؤسسة بافاريا،بيروت، ١٩٩٣م / ١٤١٤ هـ، ص ٢٣٣.
(٧) أنظر: مصطفى السباعي: نظام السلم، مرجع سابق.
(٨) سورة المائدة.

منظومة أخلاقية متكاملة

وليست الحرب في الإسلام للسيطرة ولا للاعتداء على الآخرين ولا للغنائم، بل دفعاً للظلم ورداً للعدوان[١]، ولذا لم يشهر المسلمون سيوفهم في وجوه أعدائهم إلا بعد اليأس من مسالمتهم، ولم يحاربوا إلا لإعلاء كلمة الله، وإلا ليردوا عدواً مقتدين بنهي القرآن الكريم عن العدوان، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [٢]

فالحرب في الإسلام إذاً قامت عند الضرورة، تُراعى فيها القيم والأخلاق، لأنها حرب في سبيل الله، وليس الهدف فيها القضاء على المقاتل الذي يواجهه وإلحاق الضرر به، بل دفع شره وضرره، لذلك فإنَّ استخدام القوة في الإسلام يقتصر على الفئة التي تشارك عملياً في الفتنة، وتحمل بداخلها الشر، وقد وضع الإسلام دستوراً متكاملاً وقانوناً نافذاً للحرب والقتال، ضمَّنه آداب القتال وضوابطه الأخلاقية[٣].

إن دفع الاعتداء في الإسلام، أينما يكون بالقدر الذي وقع به، فالشريعة الإسلامية تحد حركة المسلمين وتحفظهم عن مسايرة عدوهم في اندفاعه الأعمى وبربريته للقضاء على الحرث والنسل بل تقرر نمطاً من التعامل الإنساني يحفظ على المجتمعات وجودها[٤].

وقد أضافت الشريعة الإسلامية كل مكارم الأخلاق[٥] التي تحمل العلاج الناجع للنفس البشرية وقلمت أظافر الكفر والشرك[٦] والطغيان.

وقد كان الإسلام يومئذ -كما هو اليوم وكما كان دائماً- ينكر حرب الاعتداء[١] ويقر السير توماس أرنولد[٢] بسماحة الإسلام وذلك تحت عنوان " القرآن يأمر بالدعوة والإقناع وينهي عن الإكراه [٣].

---

(١) عبد الرحمن زكي: الحرب عند العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧ م / ١٣٩٨ هـ، ص ٨.
(٢) سورة البقرة: آية ١٩٠.
(٣) أحمد الصادق البشير: معاملة الأسرى في الاتفاقات الدولية، ورقة عمل مقدمة ضمن ندوة السيرة النبوية: قراءة في جانب العلاقات الدَّولية، مركز بحوث القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، ط١، ٢٠٠٦ م/ ١٤٢٧ هـ .
(٤) محمد مقبل البكري: مشروعية الحرب في الشريعة الاسلامية،والقانون الدولي المعاصر، المجلة المصرية للقانون الدولي،الجمعية المصرية للقانون الدولي، م١٩٧٩،٣٥/ ١٤٠٠ هـ، ص١١١.
(٥) أحمد عمر هاشم: منهج الاسلام في العقيدة والعبادة والأخلاق. ط١، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٥م / ١٤٠٦ هـ، ص ٣٧.
(٦) حسن حبشي: تاريخ العالم الاسلامي، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢ / ١٤٢٣ هـ، ص ٤٨.

كذلك نهى القرآن الكريم عن قتال من أعلن مسالمته وإن كانت ظاهرية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[٤] .

بل إن الإسلام أمر بالعدل حتى مع الأعداء وحرم القرآن حروب التشفي والانتقام حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٥].

والسلم هو أساس البناء للمجتمع الإسلامي، وهو مشرق شمس الألفة عليه وقوة الأواصر المتشابكة به [٦] كما أنكر الإسلام حروب التخريب والتدمير وحروب الاستعلاء، فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [٧] .

---

(١) محمد حسين هيكل: حياة محمد، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ / ١٤١٥ هـ، ص ٢٠٧.

(٢) توماس آرنولد: مستشرق بريطاني شهير، بدأ حياته العلمية في جامعة كمبردج حيث أظهر حبه للغات فتعلم العربية وانتقل للعمل باحثاً في جامعة (عليكرا) في الهند حيث أمضى هناك عشر سنوات ألف خلالها كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام)، ثم عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة لاهور، وفي عام ١٩٠٤م عاد إلى لندن ليصبح أميناً مساعداً لمكتبة إدارة الحكومة الهندية التابعة لوزارة الخارجية البريطانية، وعمل في الوقت نفسه أستاذاً غير متفرغ في جامعة لندن وكان عضو هيئة تحرير الموسوعة الإسلامية التي صدرت في ليدن بهولندا في طبعتها الأولى، عمل أستاذاً زائراً في الجامعة المصرية عام ١٩٣٠م.

(٣) لمزيد من التفاصيل أنظر، توماس أرنولد: الدعوة الى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن و عبد المجيد عابدين،، مكتبة النهضة المصرية، ٢٠٠٦ م/ ١٤٢٧ هـ، ص ٢٧.

(٤) سورة النساء: آية ٩٤.

(٥) سورة المائدة: آية ٨.

(٦) جاد الحق علي جاد الحق: الدعوة الى الله، ط١، دار الفاروق،القاهرة، ٢٠٠٥ م /١٤٢٦ هـ، ص ٧٩.

(٧) سورة القصص: آية ٨٣.

والسلام في مبادئ الإسلام أعمق من أن يكون مجرد رغبة يدعو إلى تحقيقها في الحياة، إنما هو أصل في عقيدته، وعنصر من عناصر تربيته، و هدف يُعمق الإحساس به في ضمير الفرد وفي واقع المجتمع وفي بناء الأمة[١].

تهذيب فكرة الحرب

وبما أن الإسلام ليس دين وهْم وخيال، وبالتالي هو دين لم يقف عاجزاً أمام تجبر الطغاة؛ فهو دين منهج وليس نظرية[٢] تتعامل مع الفروض بل مع الواقع[٣] وهو دين الحق والحرية والنظام، وما يحقق للإنسانية اتصال تطورها في سبيل الخير والكمال.

وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون إلا للدفاع عن النفس و عن العقيدة و عن حرية الرأي والدعوة إليه، وأن تُرعى فيها الحُرمات الإنسانية تمام الرعاية. و هذا ما قرر الإسلام وهذا ما نزل به القرآن[٤].

والإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته جميع الحقوق، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك، إلا أن يحال بينها وبين انتضائه، أو تبطل عندهم الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها. والإسلام عقيدة ونظام، و هو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام في أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه[٥].

ظاهرة الحرب عند الأديان السابقة

وما جاء به الإسلام أفضل وأبر وأرحم من كافة الشرائع الأخرى وبشهادة القاصي والداني **واليكم الدليل الدامغ.**

جاء في العهد القديم (التوراة[٦]) في سفر يشوع[١]:

---

(١) محمد شديد: الجهاد في الاسلام، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، بدون، ص ١١٩.
(٢) أنور الجندي: طابع الإسلام بين الأديان والأيديولوجيات، دار الأنصار، بدون، القاهرة، ص ٩.
(٣) سيد قطب: معالم، مرجع سابق، ص ٣٣.
(٤) حسين هيكل: حياة محمد، ج١، مرجع سابق، ص ٢١١ .
(٥) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، نهضة مصر، ٢٠٠١ / ١٤٢٢ هـ، ص ٣١.
(٦) تعني كلمة "التوراة" بالعبرية التعليم أو التوجيه (الترئية بالمعنى الحرفي) وخصوصاً فيما يتعلق بالتعليمات والتوجيهات القانونية، وترمز التوراة للأسفار الخمسة الأُولى من الكتاب المقدّس عند اليهود [للمزيد أنظر، دائرة المعارف الاسلامية، اللغة العبرية وآدابها (٢٩)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري].

"فهتف الشعب، وضربوا بالأبواق، وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن هتف هتافا عظيماً، فسقط السور في مكانه. وصعد الشعب إلى المدينة... "وحزوا كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، ومن طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف" "[٢].

وجاء أيضا: "وأخذها يشوع مقيدة في ذلك اليوم، وضربها بحد السيف، وحرم ملكها، هو وكل نفس بها. ولم يبق شارد. وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا، ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل "إسرائيل" معه إلى لبنة، فضربها بحد السيف، وكل نفسه بها، ولم يبق شاردا. وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا. "[٣].

كما جاء في سفر التثنية ذلك النص البالغ الخطورة:

" حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلي يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء، أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما"[٤] !!!.

وكانت حرب داود[٥] كلها حروب إبادة جماعية[٦]:

" وخرب داود الأرض ولم يستبق رجلاً ولا امرأة وأخذ غنماً وبقرا وحميرا وجمالا وثيابا" [٧].

---

(١) سفر يشوع في العهد القديم هو تكملة لتاريخ سفر التثنية وهو يغطي فترة قدرها ٢٥ سنة، ويسجل سفر يشوع استيلاء بني إسرائيل، بقيادة يشوع، على أرض كنعان.

(٢) يشوع ٢٠/٢.

(٣) يشوع ٢٨/١٠.

(٤) التثنية ٢٠ (١٠ – ١٦).

(٥) داوُد أو داود أو داؤود: معناه "محبوب"، هو ثاني ملك على مملكة إسرائيل المتحدة (١٠١١ ق.م. - ٩٧١ ق.م.) وأحد أنبياء بني إسرائيل. ويُعتبر أحق وأنزه ملك من بين ملوك إسرائيل التاريخيين، وهو صاحب مزامير داود الشهيرة.

(٦) جمعة الجندى: ملامح العنف والإرهاب الصليبى، مكتبة مدبولى، ط١، ٢٠٠٦ / ١٤٢٧ هـ، ص ١٩،.

(٧) صمويل الأول ٢٧ (٨ – ١٢).

هذه هي النصوص النموذجية التي تمجد العنف وحد السيف كأنه الشغل الشاغل والهم الأول لليهود[١].

وقد جسدت حياة السيد المسيح (عليه السلام) القصيرة ووصاياه نضالا لا سابق له ضد منطق العدوان، حيث قامت أركان دعوته على منطق العدالة والحب والسلام. رغم ذلك لا يخلو العهد الجديد (الإنجيل) [٢] من شريعة الحرب:

" لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض بل سيفاً"[٣].

الإسلام والسلام

والإسلام في صميم تعاليمه ضد الحرب، ولكن حين تفُرض عليه هذه الحرب فلا مناص من المواجهة ولا مفر من القضاء على قوى الطغيان والشر.

وقد جاءت الدعوة الإسلامية لتنقذ البشرية جمعاء من الاستعباد والفقر والرذيلة والتأخر الحضاري، لتكون ثورة على النظم الرجعية القديمة التي تتنافى هي والإنسانية والحضارة. وكل دعوة إصلاحية لا بد أن تلقى حركات مضادة ممن يسعون في الأرض فساداً، وهو صراع بين أنوار الحق وظلام الجاهلية، وبما أن البقاء دائماً للأصلح والأنفع فكان البقاء – بطبيعة الحال - **للإسلام.**

ولذلك ومنذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام في مكة، لقيت الحضارة الإسلامية مقاومة وحروباً مضادة [٤].

فقالوا ما أتيت بأمر صدق وأنت بمنكر منا جدير

فقال بلى لقد أديت حقاً يصدقني به الفهم الخبير

---

(١) ما قيل عن داود عليه السلام في التوراة ليس هو الواقع بطبيعة الحال ولكن لم يسلم داود ولا غيره من الأنبياء المكرمين من غدر اليهود وبهتانهم.

(٢) يُطلق على الإنجيل "العهد الجديد" أما التوراة فيُطلق عليها " العهد القديم " الإنجيل كلمة معربة من اليونانية:εὐαγγέλιον ايوانجيليون التي تعني "البشارة السارة". (للمزيد، أنظر، قاموس الكتاب المقدس، كتاب الألفاظ (٣١٧)، الموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م، ص ١٣٧.

(٣) متى: ١٠ / ٢٥.

(٤) علي حسني الخربوطلي: الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٨.

فمـــن يتبعـــه يهـــد كـــل رشـــد ومـــن يكفـــر بـــه يجـــز الكفـــور[١]

وتمتاز الحرب في الإسلام بأنها حرب أخلاقية[٢]، في ممارستها وفي غاية شنها، إذ أن الغاية من الحرب في الإسلام هي إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، وإقامة حكم الله على أرضه؛ فقد نهج الإسلام في حروبه طريقاً لم يكن معهوداً من قبل في أمة من الأمم ولا في شريعة من الشرائع السابقة، ومن السهل أن نتبين من الآيات الكريمة التي تعرضت لشأن القتال، ومن أفعال النبي ﷺ،ووصاياه ووصايا خلفائه من بعده " أن الإسلام هذب أمور الحرب، ورفع مستوى الإنسانية ، وبث الرحمة والعدل في قلوب متبعيه، وأوضح لهم نظاماً للحروب لم تصل إليه تلكم الأمم، التي تدعى لنفسها أنها وصلت إلى مستوى رفيع من الحضارة والمدنية[٣].

فنظام الحرب في الإسلام يقوم على النظرة التي تقوم عليها الشريعة الواقعية التي تقر فكرة الحرب.. لأن من الشعوب أحيانا من لا تردعهم التربية ولا القانون عن العدوان والطغيان[٤]، وأن في الأمم من تغريها قوتها وضعف جيرانها بالعدوان والبغي، لا جرم إن كان من الخير أن يشرع استعمال القوة حينئذ لحملة السلام من أعدائه في الداخل والخارج.. وهذا هو ما رمى إليه الإسلام حين أقر استعمال القوة.

والمحافظة على النفس الإنسانية وعدم إهدارها هو الأصل في الإسلام وان الله حرم الاعتداء على الحياة.

وَلاَ تَقْتُلُـــواْ الـــنَّفْسَ الَّتِـــي حَـــرَّمَ اللّـــــهُ إِلاَّ بِـــــالْحَقِّ[٥]

فالقتل هو الاستثناء ولا يكون إلا بالحق وهو ارتكاب الجرائم التي تعادل إهدار النفس كالقتل والفساد في الأرض سواء من الأفراد فتكون العقوبة الفردية أم من الدول والجماعات فتكون الحرب والجهاد في سبيل إعادة الحق وإزهاق الباطل ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[٦].

---

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاري: تحقيق: سامي العاني، مطبعة النهضة، بغداد، ص ١١٢.

(٢) سنقوم بعرض مسألة جواز إطلاق صفة الأخلاق على الحرب في الفصل الخاص بأخلاقيات الحرب عند الرسول الكريم ﷺ.

(٣) أنظر: أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية، ط١١، مكتبة وهبة، القاهرة،٢٠٠٤ /١٤٢٥ هـ، ص ١٥٥.

(٤) هل نورد أمثلة على ذلك من التاريخ القديم والحديث؟! لا نحتاج !!!.

(٥) سورة الأنعام: آية ١٥١.

(٦) سورة المائدة: آية ٣٢.

فقد وضع الإسلام للحرب والسلم قواعد ونظمًا دقيقة، أنقذت البشرية من أهوال الصراع والدمار، وأتى الإسلام بمبادئ أخلاقية في مجال الحرب لم تعرفها البشرية من قبل ومن بعد.

فهذه الحرب تخضع لكل معايير الفضيلة؛ فهي ردّ على العدوان، لا إفراط فيه في استعمال القوة، وفيها إسعاف للضعفاء، ولها لها ضوابطها الشديدة في الحفاظ على المدنيين والضعاف والعمال والفلاحين والأجراء ورجال الدين والنساء والمحافظة على الأشجار المثمرة وعلى الحيوانات والمنع من حرق الغابات وإيذاء غير المقاتلين، واحترام المعاهدات احتراما شديدا حتى ولو كانت في بعض الأحيان تبدو مجحفة إنها حرب نظيفة ـ فيها قيادة واحدة وليست لعبة دموية يقوم فيها الجيش بقتل من يشاء وينهب ما يشاء ويهجم ويغير على من يشاء ـ إنها حرب ضرورة فهي بلغة العصر حرب يؤيدها القانون الدولي والمعاهدات الدولية وميثاق الأمم المتحدة (١).

والحرب التي يعلنها الإسلام حرب في سبيل الحق والحرية والعدالة والسمو الروحي والخُلُقي.. أما الحرب التي يعلنها أعداؤه فهي حرب طغيان وظلم واضطهاد.

وقد حث الإسلام أتباعه على مهادنة أعدائهم إذا رغبوا في الهدنة بشرط(٢) ألا يكون هذا بإهدار حق من حقوق الله، قال تعالى:

﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ (٣)

ولم ينتشر الإسلام بالسيف، ولكن انتشر بالتسامح والقدوة الحسنة والأخلاق الحميدة، والمعاملة الطيبة، فإسلامنا لم ينتصر بالسيف وإنما انتصر على السيف.

فالإسلام يدعو إلى السلام قبل القوة، فلا جبروت ولا طغيان، ولا ذل ولا استسلام ولا هوان بل عزة لله ورسوله وللمؤمنين.

وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه وحثهم على الدخول في زمرة المؤمنين (٤).

وأما الحرب التي يعلنها الإسلام لتأمين السلام العالمي فهي التي يعبر عنها القرآن بالجهاد في سبيل الله، وهو ليس كما يصوّره المتعصبون من الغربيين حرباً

---

(١) أنظر: عبد الله بن بيه: هل الإسلام سيف مسلول ورمح مشرع؟!، جريدة الشرق الأوسط الخميس ١٩ رمضان ١٤٢٧ هـ ١٢ اكتوبر ٢٠٠٦ م / ١٤٢٧ هـ، العدد ١٠١٨٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر: أبو الأعلى المودودي: شريعة الإسلام في الجهاد، ترجمة سمير محمد ابراهيم، دار الصفوة، القاهرة، ١٩٨٥ م / ١٤٠٦ هـ.

(٣) سورة النساء: آية ٩٠.

(٤) توماس أرنولد: الدعوة، مرجع سابق، ص ٦٢.

دينية لإكراه الناس على الإسلام.. فذلك ليس من طبيعة الإسلام الذي أعلن حرية العقيدة بقوله ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [1] وإذما هو معركة يخوضها الإسلام لتحرير الأمة من العدوان الخارجي، ولتأمين الحرية الدينية والعدالة الاجتماعية لجميع الشعوب.. ودفع الفتنة والعدوان، وخلاص الدين كله لله أي الحرية الدينية لجميع الناس هما الغاية التي ينتهي عندها القتال في الإسلام، فإذا كف العدو عن العدوان وعن فتنة الأمة في دينها وعقيدتها لم يجز القتال.

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2].

وقد ندب الله المسلمين للجهاد لتحرير المستضعفين[3] والمظلومين الذين ضاقت حيلتهم في دفع الظلم والطغيان عن أنفسهم، وتحريرهم ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرٗا ﴾ [4].

والجهاد في سبيل الله **حرب دفاعية**، لرد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين[5] ولذلك جاء تبريرها بأنهم قوتلوا وظلموا وأخرجوا من ديارهم وطوردوا في عقيدتهم.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ [6].

فالحرب دفاعية وليست لإجبار الناس على الدين. والأصل مع غير المسلمين هو السلم لا الحرب، وهو جهاد في سبيل الغايات الكريمة التي قامت من أجلها الشرائع، وتسعى إليها الإنسانية الكريمة في كل عصر.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
(٢) سورة البقرة: آية ١٩٣.
(٣) محمد عمارة: الإسلام والحرب الدينية، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٢ م / ١٤٢٣ هـ، ص ١٩.
(٤) سورة النساء: آية ٧٥.
(٥) حسن البنا، السلام، مرجع سابق، ص ٣٢.
(٦) سورة الحج: آية ٣٩.

وهناك أطراف وحكم للجهاد كلها تابعة للهدف الرئيس نلخصها فيما يلي[١]:

إما **لرد اعتداء** المعتدين على المسلمين، **أو إزالة الفتنة** عن الناس حتى يستمعوا إلى دلائل التوحيد من غير عائق ومن هذه العوائق ما يمارسه الكفار من أشكال التعذيب والتضييق على المسلمين ليرتدوا عن دينهم.

وحين تتأكد الأمة الإسلامية المسالمة من نية العدوان والغدر لدى أمة من الأمم ضدها، يجب عليها أن تستعد بكل ما تملك من قوة، فإن كف العدو عن فكرة العدوان، وعدل عن الحرب وجب على الأمة أن تجنح للسلم وتدخل فيه وإن أبى العدو إلا الحرب والعدوان، فجزاء سيئة سيئة مثلها فإذا بدأت الحرب فلتخفف ويلاتها بقدر ما يمكن وإنهاء الحرب وإقرار السلام بأقل ما يمكن من الزمن، وأقل ما يقع من الضحايا[٢].

فإذا رغب المحاربون في الصلح عند اشتداد المعركة وجب أن نقبل الصلح منهم ولو أشرفنا على النصر، ثم الوفاء بما تم عليه العهد.

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[٣].

فإذا بدا منهم بعد ذلك نية الغدر والخيانة فلا يجوز أن نفاجئهم بالقتال، بل لا بد من إخبارهم بانتهاء العهد بيننا وبينهم: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾[٤].

وإذا انتهت المعركة باستسلام العدو وانتصار الأمة، فلا عدوان على الأعراض، ولا تخريب للمدن، ولا استلاب للأموال ولا إذلال للكرامات، ولا اندفاع وراء الثأر والانتقام، وإنما هو الإصلاح والتحرير والعدالة ونشر الخير ومكافحة الشر[٥].

---

(١) أنظر: سعيد عبد العظيم، تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد، مكتبة الايمان، الاسكندرية، مصر ١٩٩٠ م / ١٤١١ هـ، ص ٨٨.

(٢) أنظر: مصطفى السباعي: نظام السلم، مرجع سابق.

(٣) سورة النحل: آية ٩١.

(٤) سورة الأنفال: آية ٥٨.

(٥) أنظر: مصطفى السباعي: نظام السلم، مرجع سابق.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [1].

أما المغلوبون فتحترم عقائدهم ودماؤهم وأموالهم ومعابدهم ولهم حماية الدولة وحقوق المواطنين [2].

والهدف الذي يُنشده الإسلام من الحرب هو **حماية حقوق الإنسان** مهما كان انتماء أو عقيدة هذا الإنسان. فعندما ينتهج العدو منطق القوَة و يستبد بطغيانه و لا يراعي تطبيق أي قانون، عندها يوصي الإسلام بقتال هذا العدو و إعلان الحرب عليه، على أن يتوقف القتال حال استسلامه أو الكف عن عدوانه.

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3].

وتفرض الشريعة الإسلامية على إقامة الحرب شرط أخلاقي أساسيَ ألا و هو مراعاة القواعد الإنسانية لهذه الحروب و النزاعات [4].

---

(١) سورة الحج: آية ٤١.
(٢) مصطفى السباعي: نظام السلم، مرجع سابق.
(٣) سورة البقرة: آية ١٩٣.
(٤) وهو ما سنعرضه في الفصل القادم.

دين السلام

وقد آثر الإسلام السلام على الحرب، وفي القرآن الكريم آيات صريحة في نصرة السلام على الحرب، إلا أن يكون ثمة عدوان فلابد آنذاك من خوض الحرب ردا للمعتدين ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (١)

والسلم في الآيات القرآنية هو السلام والأمن والأمان وعلى هذا أيضاً، يمكن القول إن مفهوم الحرب في الإسلام يخضع خضوعا كاملا لضوابط صارمة ولا يمكن الخروج عليها؛ فلا يمكن إقرار الحرب، أو الدعوة إليها، أو التهديد بها، إلا في أضيق الحدود، فقد أمر الإسلام بالكف عن القتال إذا كف عنه المعتدون، وبقصر الحرب على الجيش المحارب دون غيره، وتحريم التمثيل بالقتلى، وتحريم إتلاف الأموال وتجويع الأعداء، وبالإحسان إلى الأسير، وبالتأكيد على الرحمة في القتال، وبالوفاء بالمعاهدات والمواثيق والعهود، والتمسك بأسباب العدل. فما أعظمه من دين.

وكان الإسلام سباقاً في مجال حقوق الإنسان؛ سواء في وقت السلم أو في وقت الحرب منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام، وكان وما يزال الهدف الأسمى للإسلام هو خلق مجتمع بشري صالح يعيش في أمن وسلام (٢).

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض وترخص وتهون جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، خلقهم من أصل واحد كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته، لواء التقوى في ظل الله تعالى وهذا اللواء هو الذي ينقذ البشرية من العصبية للجنس والعصبية للأرض، والعصبية للدولة وكلها لا تساوي شيئاً في ميزان الألفة والتعاون والمحبة(٣).

---

(١) سورة الأنفال: آية ٦١.

(٢) علي حسني الخربوطلي: الإسلام دين عالمي انساني، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦ م / ١٣٨٦ هـ، ص ١٣٢.

(٣) أنظر، سيد قطب: في ظلال القرآن، دار إحياء التراث، ط٧، بيروت.